القيم المتضمنة في أدب الطفل، والجمهورية الجديدة

أ. مجدي مرعي حسن

مؤلف، ومخرج مسرح طفل

تقديم

بكل تأكيد أصبح لأدب الأطفال تأثير كبير جدًا على سلوك وتنشئة أبناء اليوم، ففي ظل الثورة المعلوماتية والانفجار التكنولوجي غير المسبوق، وظهور الفضائيات بشكل لا يمكن حصره والخاصة بالطفل، فما يبث عبر كافة الوسائل، من خلال الشاشة الصغيرة، فالشاشة أصبحت شاشة واحدة، فمن خلال شاشة الهواتف المحمولة أو الأجهزة الذكية أو الكمبيوتر بكافة أشكاله الثابتة والمحمولة، أصبح الطفل يستطيع مشاهدة البرامج المتلفزة بشكل متزامن أو غير متزامن، بل ويستطيع مشاهدة برامج ومسلسلات وأفلام تم إنتاجها وبثها في الماضي حتى قبل ولادة أبنائهم وأمهاتهم، بل ومشاهدة أية مادة مصورة من أي مكان بالعالم وبأية لغة، فأية صورة مصحوبة بكلام، هذا الكلام ما هو إلا عبارة عن نصوص أدبية كتبت للأطفال إذا ما كانت الفئة المستهدفة من تلك الصورة هم الأطفال؛ لأنها تبني عقول ستدير المستقبل.

التعريف بمفهوم القيم

يعبر عن مفهوم القيم بأنها مجموعة من المعايير والمقاييس المعنوية بين الناس يتفقون عليها فيما بينهم، ويتخذون منها ميزانًا يزنون به أعمالهم، ويحكمون به على تصرفاتهم المادية والمعنوية. وهي مقياس أو مستوى أو معيار نستهدفه في سلوكنا وينظر إليه على أنه مرغوب فيه أو مرغوب عنه.. وهى عبارة عن الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للموضوعات أو الأشياء. وتتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد بمعارفه وخبراته، وبين ممثلى الإطار الحضاري الذي يعيش فيه، ويكتسب من خلاله هذه الخبرات.

وتعرف القيم الخلقية بأنها "مجموعة من المعايير الأخلاقية والسلوكية التي تحكم سلوك الطفل، وتوجهه وفقا لمنظومة اخلاقية تستمد تعاليمها من القرآن والسنة، وتتفق مع الآداب والأخلاقيات التي تستمد من الشرائع السماوية، والتي تجعل لحياة الفرد معنى ووظيفة، فهى تضبط وتحدد سلوكه واتجاهاته".

القيم المتضمنة في صنوف أدب الطفل المختلفة:

أولًا – القصة

تعرف القصة على أنها "حكاية تقوم على الأحداث، والصراع، والعقدة، والحل، والأشخاص، والزمان، والمكان، والهدف المنوط بها هو الإمتاع والتسلية".

ولا بد أن تتفق القيم المستمدة من القصص مع صورة المجتمع الإنساني فهى تعكس أهداف المجتمع من التربية، وبخاصة القيم الخلقية، ومن هنا كان لا بد على المؤسسات التربوية السعي إلى غرس وإكساب الأطفال منذ المراحل الأولى العديد من القيم الخلقية لمواجهة هذا التغير في المجتمع، والتصدي له، والحفاظ على النسق القيمي.. وأن استخدام النماذج القيادية (الرموز التاريخية) في التدريس للأطفال عن طريق القصص يساهم في إكسابهم القيم الخلقية المرتبطة بتلك الشخصيات محل الدراسة؛ مما يؤدي إلى تأصيل القيم الخلقية والسياسية لدى الأطفال الصغار، فالقيم الإسلامية، مثل: الصدق والأمانة، والعطف والرحمة، والإيثار، والشجاعة، والتسامح، وغيرها من القيم الدينية كلها تنعكس عبر القصص النبوي الشريف.

وهناك وسائل كثيرة تسهم في إكساب الطفل للقيم، من بينها (قصص الأطفال) التي تعد من أهم الوسائط التربوية التي تعمل على اكتساب الأطفال للقيم، وذلك لما تتميز به من خصائص تجذب انتباه الطفل، حيث يشغف بها ويتتبع أحداثها ويحاول دومًا الاستزادة منها؛ ولهذا كانت القصص وسيلة تربوية ناجحة، عطفًا على قدرتها على غرس القيم من خلال المتعة التي ينشدها الطفل. ومن هنا تكمن أهمية أن تكون القيم المتضمنة في هذه القصص قيمًا إيجابية.

والقصة تعد من أهم الأساليب الإبداعية التي تساعد على تكامل شخصيته كإنسان مفكر مبدع متميز قادر على التخطيط لحياته واتخاذ القرار، وذلك من خلال عرض نماذج متنوعة لشخوص وأبطال تلك القصص، سواء كان ذلك العمل مقدمًا من خلال قصة مقروءة أو مسموعة أو تمثيلية.

وهذا يرجع إلى أن القصة القصيرة تخاطب عقل ووجدان وحواس الطفل، خاصة لو تم تحويلها إلى عمل مسرحي، مما يعمل على اندماج الطفل في أحداث هذا العمل والتفاعل معه؛ الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق أهداف عديدة تساعد على تنمية شخصية الطفل وتطويرها.

ويلاحظ أنه أحيانًا قد يحدث خلط في فهم الدور الذي تقوم به القصص في تشكيل وجدان الطفل، حيث يعتقد البعض أن أية قصة تصلح لتقديمها إلى الطفل إذا توافر بها عنصري: الجذب، والتشويق؛ بالرغم من تأكيد التربويين على ضرورة أن تتضمن تلك القصص القيم الجمالية والأخلاقية والنفسية والثقافية، مع الاهتمام بأن تثري خيال الطفل وبما يساعد على بناء شخصيته.

ويتطلب إعداد القصة القصيرة العديد من الأسس التي لا بد من مراعاتها:

- **الفكرة في القصة:** هي ما يدركه القارئ من مجمل قراءته لها، وقد تتضمن القصة فكرة واحدة أو أكثر، وهذه الأفكار لها معايير أساسية، منها: أنها يجب أن تكون مناسبة للمرحلة العمرية التي تقدم لها، وأن تدعم القيم والمبادئ النبيلة في نفس الطفل، وأن تقدم بأسلوب واضح يسهل على الطفل فهمه.
- **الحبكة:** هي طريقة تنظيم الأحداث داخل القصة، بحيث يكون الربط بين الأحداث والشخصيات منطقيًا، وأن تكون الحبكة واضحة ومباشرة، بالإضافة إلى مراعاة سرعة الأحداث؛ مما يثير شغف الأطفال بمتابعة قراءة القصة.
- **الشخصيات:** تعد الشخصيات من أهم عناصر القصة، كما أنها من أسباب نجاحها وجذب اهتمام الطفل، بشرط أن تكون تلك الشخصيات مقنعة، ويتوافق سلوكها مع طبيعة الشخصية التي تقدمها، وبالمثل إذا كانت الشخصيات من عالم الحيوان أو الطيور أو الجماد فلا بد من مراعاة أن يتوافق طرح الشخصية مع الطبيعة الخاصة بها.
- **البيئة الزمانية والمكانية:** وهي الخلفية المادية للقصة، وتتضمن الموقع الجغرافي، والفترة الزمانية، وذلك من خلال الرسم الواضح، والتناسب بينه وبين أحداث القصة.
- **الأسلوب:** ويجب أن يراعى فيه ملاءمته مع باقي مكونات القصة، وأن يتسم الأسلوب بالحركة بدلًا من الوصف والسرد، حتي لا يصاب الطفل بالملل، وأن يهتم بالحوارية؛ لأن ذلك يضفي على القصة الحيوية بشرط أن يبتعد الكاتب عن المبالغة في الوصف.

مما لا شك فيه أن بناء القيم الإيجابية لدى الطفل من خلال القصة، يعد من أهم الأسس لبناء شخصية الطفل وتطويرها، حيث تعبر هذه القيم عن الهوية والشخصية، فالقيمة

الجمالية مثلًا من أهم عناصر تنمية الجانب الوجداني والتخلي لدى الطفل، فضلًا عن ذلك أهميته في الارتقاء بالشخصية والتذوق الجمالي، والكشف عن الموهبة الإبداعية للطفل.

وتعد قصص الأطفال من الأساليب التربوية والتعليمية التي تساعد الطفل على إدراك المبادئ التي تحث عليها الأديان السماوية والقيم الأخلاقية، والتي يترتب عليها السلوك السوي المتسم بالرقي والأخلاق الحميدة، من خلال طرح العديد من المواقف التي يتعرف الطفل من خلالها معنى الخير والشر، والأخلاق الفاضلة، وغير ذلك مما ينمي لدى الطفل الجانب الأخلاقي المتسم بالاتزان والالتزام والأمانة والشرف.

ومن القيم الوطنية التي يمكن أن تؤكدها قصة الأطفال: حب الوطن والانتماء إليه من خلال عرض نماذج للشخصيات الوطنية ذات البطولات، والشجاعة في الحفاظ على الوطن.

مما لا شك فيه أن قصص الأطفال تعمل على تقوية العلاقات الإنسانية داخل المجتمع، مثل: الصداقة، والتعاون، والعطاء وخدمة الآخرين، من خلال العمل التطوعي وقيمة العمل الجاد، فضلًا عن نشر قيم الحب والسلام بين البشر، وغير ذلك من القيم الإيجابية التي تبني الشخصية، وتساعد على بناء المجتمع وتنميته.

ثانيًا – الشعر

شعر الأطفال الجيد هو الذي يمزج الخبرات، ويربط بين تجربة الشاعر والطفل؛ وهو لذلك يربط بين عواطف الأطفال وأفكارهم، ويثير فيهم ما يتضمنه من صور شعورية، وانطباعات فنية، واستجابات عاطفية، ولقد اتسعت دائرة شعر الطفولة وتنوعت أبعاده (مضامينه)، فدارت حول القيم الروحية والاجتماعية والإنسانية، واستهدفت غرس الفضائل والمبادئ والأخلاق الحميدة في نفوس الصغار؛ وبالتالي عملت على توجيههم إلى السلوك الطيب والآداب السليمة، وإذكاء روح المحبة والخير والتضحية في نفوسهم.

"والشعراء من أقدر الناس على دخول عالم الطفولة الساحر، ذلك الذي لا يعتمد الداخلون إليه على العقل وحده، بل يقودهم فيه الخيال والحب والعاطفة، وقدر كبير من التمييز الوجداني، ونصيب واف من ذكريات الطفولة ومرحها البريء، وولع بقيم الحق والخير والجمال. والشعراء بهذا كله حين تسبح بهم أخيلتهم وتقودهم إلى العالم الأسطوري المسحور والمحفور في عقلهم الباطن منذ الطفولة يدركون ما يشد عواطف الأطفال ويثير خيالاتهم،

فيصوغونه – إن أرادوا وتهيأت لهم الظروف– أدبًا يمتع الأطفال ويؤنسهم، ويدخل السرور على قلوبهم"[١].

ثالثًا – الحكايات الشعبية

تعد الحكاية الشعبية وليدة إبداع المجتمعات عبر العصور المختلفة؛ حيث إنها تحمل خلاصة فكر هذه المجتمعات وحكمتها، وبقايا المعتقدات التي سيطرت على إنسان هذه العصور القديمة، وهي واحدة من أهم أنواع الأدب العربي؛ حيث إنها تربط الطفل بموروثه الثقافي الذي يحدد هويته ولغته وخصوصيته الحضارية، ولا نعرف مجتمعًا لم ينسج حكاياته الشعبية الخاصة به، التي غالبًا ما تتشابه مع غيرها من حكايات الشعوب والمجتمعات الأخرى، في تأكيد وحدة المشاعر الإنسانية والقيم النبيلة، وتشابه الفطرة الإنسانية في ظروف معيشتها وطرق تفكيرها ونظرتها للعلاقات الاجتماعية بين أفرادها، والصراع بين قوى الخير وقوى الشر، وصراع الإنسان مع الطبيعة أو مع سائر المخلوقات من حوله، أو صراعه مع الغيبيات والقوى الخارقة، كما أن هذا التشابه يؤكد انتقال هذه الحكايات بين الشعوب من حضارة إلى أخرى، مع إضافة كل حضارة صبغتها الخاصة على الحكاية الأساسية من خلال شفاهية الحكي التي ساعدت الشعوب على إدخال التعديلات على النص الأصلي.

- **أنواع الحكايات الشعبية**

وتعد الحكايات الشعبية بأشكالها المختلفة من حواديت ومقامات وليال ومسامرات وسير من أقدم الأنواع الأدبية التي يزخر بها الموروث الثقافي العربي، وتمثل بزوغ فجر السردية العربية التي يري الدارسون فيها المقابل للملاحم والأساطير التي ابتدعتها الثقافات الأخرى، وبخاصة الثقافة الإغريقية واليونانية القديمة، وتمثلت أنواع الحكاية الشعبية– كما قسمها الباحثون– إلى: حكايات الحيوان، والخرافة، والسير الشعبية، وحكايات الشطار.

ونحن لا نحتاج إلى جهد كبير للربط بين نشأة أدب الطفل عالميًا، وتأثره الواضح بالحكاية الشعبية والأساطير والخرافات؛ حيث إن الأخوين (جريم) يُعَد جمعهما للحكايات الشعبية الألمانية البداية العلمية الأولى لدراسة المأثورات الشعبية، كما لاقى عملهما قبولًا ورواجًا كبيرًا عند الكبار والصغار، واعتبر ذلك فيما بعد من إرهاصات النشأة في أدب الطفل، وهذا التزاوج والارتباط الذي شهدته النشأة العالمية لأدب الطفل مع الحكاية الشعبية لم يختلف في النشأة العربية والإرهاصات الأولى لأدب الطفل على يد (رفاعة الطهطاوي)

في كتابه التعليمي (المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين) الذي ظهر خلال القرن التاسع عشر، وترجمته عدد من القصص، منها: (حكايات الأطفال)، و(عقلة الصباع)، ثم (محمد عثمان جلال) في كتابه (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ) التعليمي، الذي نقل فيه حكاية (لافونتين) الخرافية، كذلك الحال عند (أحمد شوقي) في شوقياته للأطفال، المتأثرة أيضًا بـ (خرافات) الشاعر الفرنسي (لافونتين)، ووصولًا إلى الرائد الحقيقي لأدب الطفل (كامل كيلاني) (١٨٩٧ – ١٩٥٩) الذي نشر حوالي مائتي كتاب، مستمدًا معظم موضوعاته من التراث العربي والعالمي(٢).

اختلفت الآراء حول تقديم الحكاية الشعبية للطفل ما بين مؤيد ومعارض؛ حيث اعترض فريق على استخدام الحكايات الخرافية والأساطير والأنماط الحكائية التي تستخدم الخيال الواسع والوسائل السحرية في الأدب المعد للأطفال، وحجتهم في ذلك أن "هذا العالم الخرافي أو الأسطوري يبعد الطفل عن معرفة ذاته، وتغريبه عن محيطه، وكيفية التعامل معه، وتقديم حلول جاهزة للمشكلات العويصة التي تتطلب نضالًا مريرًا في بعض الأحيان"، ويعد هذا الأمر من الخطورة في الأساطير وبعض الحكايات الخرافية، إلى جانب ما تحمله من الهروب من المسئولية، والإيمان بالخوارق والمشعوذين والدجالين.

ويصب في هذا التيار رأي (هادي الهيتي) الذي يرى أن الأساطير "أكذوبة كبيرة" لا تناسب الأطفال، وأيضًا بعض الدارسين العرب الذين يرون في امتلاء الحكايات الشعبية بنماذج وصور سلبية قد تفسد الطفل، مثل: صورة المرأة القاسية الشريرة، والساحرات الشريرات، واللصوص المحببة، فيرون أنه من غير المقبول تقديم الحكايات الخرافية للأطفال حتى وإن تم تعديلها أو تحويرها أو تحديثها، (فالأميرة الساحرة والجان والخاتم السحري) حكايات تجاوزتها الحياة الحديثة وطواها الزمان، وأدخلت الحياة العصرية أدواتها التي تتناسب مع طبيعتها وارتكزت على العلم ووسائله؛ فبدل (بساط الريح) أصبحت (مركبة الفضاء)، وبدل أن يكلم الطفل (الخاتم السحري) صار يكلم (العقل الإلكتروني)".

أما المؤيدين لتقديم الحكاية الشعبية والأسطورة والخرافة يرون أنها ليست مجرد قصص للأطفال؛ بل إنها أعمال فلسفية تحمل في ثناياها الإنسانية صدقًا واضحًا، ومن الضروري عدم التدخل في تلك الأعمال، فيجب أن يتم تقديمها كما هي، ويري (أندرو لانج) مؤسس علم الأساطير أنها "تثير الخيال، وتوسع الآفاق، وتنير العقول، وهي بذلك تعادل الأعمال الروائية لكبار الكتاب، وأن مذاقها لدى أطفال عصرنا هو نفس مذاقها لدى الأجداد منذ آلاف السنين".

وهناك رأي ثالث يوفق بين الرأيين السابقين؛ حيث إنه يدعو إلى تقديم الحكاية الشعبية بعد تهذيبها، مع مراعاة الخصائص العمرية والنفسية للطفل الذي توجه إليه تلك الحكاية وفق ما توصل إليه علم نفس الطفولة وتوصلت إليه النظريات التربوية الحديثة. فعبقرية الحكاية الشعبية تكمن في الدمج بين ما هو واقعي وما هو خيال جامح؛ إذ للخيال أهمية لا يمكن إنكارها في إطلاق القدرات الكامنة للأطفال والكبار، فلا يمكننا تجاهل حكايات (بساط الريح) التي كانت الخطوة الأولى لدفع الإنسان للتفكير نحو الطيران، وأن الخيال الجامح خطوة مع تدرج التنشئة التربوية والتعليمية للطفل لخيال يميل أكثر ناحية العلم والأخذ بأسبابه، وكما يقول (كريستوفر فراي): إن أول قدرة يجب أن تهتم بها قبل أن تصدأ بسبب عدم الاستخدام هي الخيال، فهو يجعل العالم يبدو لنا جديدًا كل يوم.

رابعًا – نصوص مسرح الطفل

بداية نذكر أن كاتب مسرح الطفل لديه قماشة عريضة من الموضوعات التي تصلح للطفل في كل مرحلة من مراحل عمره: منها ما هو مرتبط بأحداث الواقع، ومنها ما هو خيالي مرتبط بعالم الحكايات والحواديت الشعبية، ومنها ما هو فانتازي، مرتبط بعالم الخيال العلمي، ومنها كذلك ما يكتب عن الحيوانات على أنها معادل موضوعي لعالم البشر، وفي المسرحية المكتوبة نجد التأكيد على الكثير من القيم المتضمنة في النص المسرحي، تمامًا كالقيم المتضمنة في القصص والشعر، مع اختلاف شديد، أنه يمكن للنص المسرحي خروجه من أروقة الورق إلى الفضاء الشاسع الذي يمثل خشبة المسرح، فيكون تأثير المتلقي من الأطفال أقوى، ومدى استجابة الطفل بما يبثه النص المسرحي من قيم يكون على نحو أقوى أيضًا، فلا شك أن أدب الأطفال معنيٌّ بالإفادة النفعية التي تتوخى غرس القيم الخُلقيّة والتعليميّة، وهذا الأمر يبرز بشكل كبير في المسرح على وجه الخصوص، ليس لأن الشكل المسرحي يختلف بالضرورة عن شكل الحكاية: (شعرًا، أو نثرًا) وحسب، وإنما لأن (المسرحية) من زاوية التشكيل والتوصيل أقرب إلى الوفاء بالأهداف التربوية؛ إذ تتوحد فيها الوسيلة والغاية، بما لا يتاح لفن الحكاية – مهما كانت درجات التفنن في صياغتها–، إن المعضلة التي تواجه كاتب– أدب الأطفال، ومسرح الطفل خصوصًا– تكون في القدرة على الموازنة بين ما هو (نفعي)، و ما هو (جمالي)، فالنفعي يقتضي دون شك قدرًا غير قليل من المُبَاشرة التي تعوق بالتأكيد إبراز القيم الجمالية، كما أن الكاتب لا يستطيع – بحال من الأحوال – أن يسرف أو يغاليَ في استخدام الحيل الفنية والتمثيل الرمزي؛ فمن العبث أن

يغفل عن طبيعة المرحلة العُمْرية لقارئه، تلك التي يغلب ألا تمكِّن القارئ الطفل من فك الشفرات، والوقوف على ما وراء الكلمات أو (معنى المعنى)، ولا سبيل أمام الكاتب إلا سبيل الموازنة بين الرغبة في الإفادة والتوجيه من ناحية، والقيمة الفنية الجمالية من ناحية أخرى.

ووصول كاتب مسرح الطفل للفكرة التي تدور عنها المسرحية التي يستعد لكتابتها، وتبلور هذه الفكرة في حدث مترابط، هما من أهم عناصر نجاح أية مسرحية تكتب للطفل، وكما قيل: "إن وصول كاتب مسرح الطفل للحدث المثير الذي يناسب عالم الطفل يضمن لمسرحيته النجاح بشكل كبير"، ويعلو هذا النجاح بوضع شخصيات مناسبة فيها، وأن تكتب بحوار يعبر عن أحداثها وشخوصها، ويمكن للمتلقي الصغير أن يتفاعل معه وهو يقرأه، أو يسمعه من الممثلين خلال مشاهدته لها، والحقيقة أن كل حدث تعالج فيه قضية من القضايا التي تمس الطفل والطفولة هو مما يصلح صياغة مسرحية للطفل منه.

أكثر من ذلك أنني أرى أنه لا يجب أن ننظر لطفل مرحلة الطفولة المبكرة على أنه شخص ساذج ضعيف العقل، فنقدم له موضوعات فيها نصائح مباشرة فجة، وقد يرى ذلك الطفل أنها وصلت إليه بطريق لا يرضيه، فلا يتفاعل معها بشكل إيجابي.

ويكتب كتاب مسرح الطفل في كل هذه الموضوعات، وما يتفرع عنها، ولكن بعضهم أحيانًا يخطئون السبيل خلال معالجتهم لأحد الموضوعات في مسرح الطفل، فنرى بعضهم – على سبيل المثال – يُغَلِّبُ جانب التشاؤم في كتابته، وأيضًا منهم من تعلو نبرة الفكر والفلسفة في بعض كتاباته للطفل، ونرى أيضًا بعض المسرحيات الجحوية التي كتبت للطفل غير مناسبة للطفل؛ لغلبة جو الاحتيال عليها؛ ولقيام جحا بهذا الاحتيال.

خامسًا – الإشارة إلى بعض النماذج التطبيقية في البنود السابقة

١. الإشارة إلى قصة (جزيرة البنائين)، لـ (عبد الحميد أبو سليمان)

وهي قصة تربوية تحكي على ألسنة الحيوانات تاريخ الأمم والشعوب في نهضتها وانحطاطها وتوضح بشكل قصصي محبب على غرار كتاب الحكمة القصصي الشهير (كليلة ودمنة)، أن العدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان شرط أساسي للنهضة، وأن الاستبداد يورث التمزق والتخلف وتفشي الفساد، كما توضح هذه القصة أن الطريق إلى التقدم والحرية وإلى القوة والإعمار والإبداع إنما يكمن في المقدرة على حسن التربية، والحفاظ على الأسرة، وذلك بالعناية الفكرية بأدبيات التربية الوالدية الصحيحة، وبسلامة منهج أداء المدرسة

والمجتمع في ثقافته وفكره، وفي عقائده ورؤيته الكونية، وما ينبثق عنها من القيم والمبادئ والمفاهيم.

كما توضح القصة أن سلامة تربية الأبناء شرط لازم لسلامة بناء المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإلى استقرار المجتمع ونمو طاقاته وتقدمه، وفاعلية أدائه، وإسهاماته الإنسانية والحضارية، وأن كل ذلك رهن بالجهود الجادة للمفكرين والتربويين والدعاة والإصلاحيين الهادفة إلى تنوير الآباء والأمهات والمجتمع، وإلى تربيتهم في مجال سلامة تنشئة الأجيال ورجال المستقبل، وهي قصة تؤكد على قيم: التعاون، والعمل الجماعي، والشجاعة.

وتأخذ هذه القصة أربعة مراحل متتالية، هي:

- الحيوانات المفترسة تهاجم الجزيرة.
- البومة تنقذ الديك.
- البومة تدعو الحيوانات للتعاون.
- كيف يتغلب الطيبون على الأشرار.

٢. الإشارة إلى (حكايات ألف ليلة وليلة)

تعد حكايات ألف ليلة وليلة من حكايات الموروث الشعبي التي أثرت المخيلة الإنسانية في شتى بقاع العالم، واستلهمت نصوصها من ثقافات مختلفة، وتقدم هذه الحكايات الشعبية شخصيات بشرية مسخت بفعل السحر وحولت إلى حيوان أو نبات أو جماد، ولا تنتهي الحكاية حتى يعود المسخ إلى ما كان عليه في وضع أكرم وأفضل من قبل؛ لكن بعد معاناة، ومن تلك الشخصيات (ابن السلطان) الذي مُسخ طائرًا أو حصانًا، والأخ الذي مُسخ غزالًا، والأخت التي مُسخت هِرة، والأخوة الذين مُسخوا شجرات، وأهل البلدة الذين مُسخوا حجارة، كما تقدم شخصيات أخرى غريبة، كالغول، والعفريت، والمارد والجني، وأكثرها يخدم الإنسان ويساعده"(٣).

وتحفل تلك الحكايات بالكثير من الأفكار والتقنيات التي تحتاج من مبدعي أدب الطفل إعادة العمل عليها بشكل يناسب طبيعة عصر الصورة الإلكترونية المعاصرة؛ لتخاطبه بأدواته المحببة، وتقدم له نماذج من البطولات والشخصيات المكافحة من أجل أوطانها ومجتمعاتها، بما يمكن أن يوظفه القصاص من رموز وشخصيات النص الشعبي،

وقيم الشجاعة والفداء والإيثار في تنمية خيال وعقلية الطفل، وربطه بماضي الأمة، وتأكيد ذاته، والتمسك بهويته الحضارية.

وبدأ استلهامها أول القرن الثامن عشر الميلادي، وأشهر حكاياتها: (علاء الدين والمصباح السحرى)، و(علي بابا والأربعين حرامي)، و(رحلات السندباد)، واستلهم منها (كامل كيلاني) إبداعاته: (بابا عبد الله والدرويش)، و(أبو صير وأبو قير)، و(علي بابا)، و(عبد الله البري وعبدالله البحرى)، وغيرها، محاولًا إفراده كتيبًا لكل قصة، بالتركيز على فكرة واحدة مجردة من الصعوبات اللفظية والفكرية، وهناك مبدعون كثيرون استلهموها سواء في القصص المكتوبة أو المرئية تحقيقًا لغايات ترفيهية وتعليمية تستثير خيال الطفل بغرابتها، وتزوده بالخبرات والمبادئ التي تعين على مواجهة تقلبات الحياة، إضافة إلى احتوائها على قيم تاريخية وأخلاقية وأدبية(٤).

٣. الإشارة إلى بعض من أشعار الشاعر الكبير (أحمد سويلم)

حرص الشاعر الكبير (أحمد سويلم) على إذكاء القيم الدينية في نفوس الأطفال من خلال مجموعة من القصائد، فنجده على سبيل المثال لا الحصر يعمل على تعميق الإيمان ومبدأ الوحدانية، وتقريب فكرة الألوهية إلى أذهان الأطفال وعقولهم الصغيرة بصورة سهلة ومبسطة، **يقول الشاعر:**

أَشْهَـــدُ أنَّ اللهْ
الوَاحِـــدُ الإِلَـــهْ
ثُـمَّ أصَـلِّى الفَرْضَـا
واللهُ عَنِّـى يَرْضَـــى
وَالصَّـوْمُ والزَّكَـاةْ
وَحَـــجُّ بَيْـتِ اللهْ

فيتعلم الطفل من ذلك الشهادة لله الواحد، والصلاة المفروضة حتى ينال رضا الله تعالى، ويعرف كذلك أن هناك صومًا وزكاةً وحجًا، وبالتالي فإنه يسأل عن هذه الأشياء؛ حتى يفهمها ويتعرف عليها، ويقوم بتطبيقها.

وفي إطار تأكيد القيم الوطنية لتعميق الانتماء والمواطنة الصالحة في نفوس الأطفال، والدفاع عن الوطن والتضحية من أجله ببذل كل رخيصٍ وغالٍ فداء له، وعن هذه المعاني عبر (سويلم) بقوله في قصيدة تحمل عنوان (وطني):

تَسْأَلُنِى عَـنْ وَطَنِى

اللهُ يَحْمِـــى وَطَنِى
من حقـهِ عَلَـىّ
يَظَـلُّ في عَيْنَـىّ
إِنْ مَسَّــهُ الأعْــدَاءْ
قَلْبِــى لَــهُ فِـدَاءْ
لِكَـىْ تَظَـلَّ رَايَتُــهْ
وَلِلسَّمَــاءِ غَايَتُــهْ

فنجد أن الوطن هنا بمثابة البيت الكبير الذي يتعدى الأسرة، ليضم الأهل والأصحاب والجيران، وعلى الطفل أن يدافع عن كل هؤلاء.

ومرورًا بمجموعة القيم التي يود الشاعر الكبير (أحمد سويلم) غرسها في نفوس الأطفال عن طريق أشعاره الوطنية، وتأكيد لقيم الانتماء والفخر بالوطن والاعتزاز به؛ لينقل ذلك الشعور إلى أطفال الوطن؛ لأنهم طلائع المجد وبناة الحضارة، مؤكدًا في كل أشعاره الوطنية التي يقدمها للطفل بأن الوطن ليس مكانًا فقط، بل هو مستودع الماضي وإرث الأجداد، ومسرح المستقبل الصاعد، لم ينس الشاعر أيضًا أن الطفل مولع بالأشياء التي يشاهدها في الطبيعة، حيث الزروع والثمار والماء والأشجار، فراح يعمل على تنمية إحساسه بالجمال والذوق، فترى الطفل في أشعاره يتحدث عن حبه للطبيعة، فيقول في قصيدة (حب الطبيعة) على لسان الصغير:(٥).

أحِبُّ الطُّيُورَ .. أحِبُّ الشَّجَرْ
وَشَمْسَ الصَّبـاحِ .. وَوَجْـهَ القَمَرْ
وَصَوْتَ السَّوَاقِى وَلَوْنَ الْحُقُولْ
وَنَـايًـا يُرَدِّدُ لَحْنًا جَمِيـلْ
أحِـبُّ الطَّبِيعَـةَ في كلِّ حِيْن
أمَـامَ الْمِياهِ وَتَحْتَ الغُصُونْ

فجمال الصورة والكون والوجود يترك أثرًا واضحًا على النفس، فيجعلها صافية ومستكنة، وهنا نرى الشاعر يتحدث عن مفردات كثيرة موجودة في الطبيعة؛ ليعمق ذلك الإحساس بالجمال في نفوس الصغار.

ويؤكد الشاعر الكبير (أحمد سويلم) في أشعاره التعليمية، عن جوانب العلم والتعلم، وعن المدرسة وعن الكتاب، وعن المعلم، وغير ذلك من الموضوعات التي تحث وتحرص

على هذه القيم العظيمة، ففي قصيدته (عاشت الأسامى)، يحاول أن يساعد الطفل على حفظ (الألف باء)، وبصورة تلقائية يعطي الطفل قدرًا من المعرفة والعلم ببعض الأشياء ومعانيها:

هل تعرفُ معنى الأسماءْ
اصحبْنى ..
نقرأُ بعضَ الأسماء
ونفتشُ في حُلْو معانيها
من ألفِ اللغةِ إلى حرفِ الياءِ
ألف: اسمى إبراهيم
اسم نبى الله .. أقامَ الكعبةَ في الصحراءْ
وطاف الناسُ حواليها بخشوعٍ ودعاءْ
تاء: اسمى .. تامرْ
ومن التمر اسمى .. مشتقْ
معناه كثيرُ الخيرِ .. كثيرُ الرزقْ

فمن خلال قراءة الحروف وتسهيل حفظها يعمل على غرس ما استطاع من معان يود أن يتعرف عليها الطفل، ومن ثم يتسع لها ذهنه، ولكل اسم معنى ودلالة يحاول أن يعيها الطفل ويتمثل بها، وعبر أشعار شاعرنا الكبير يعمل على تأكيد مجموعة السلوكيات الطيبة، وتعليم الطفل بعض العادات السليمة، وأهمية الكتاب والمكتبة، وامتدادًا لقيمة الحب والمحبة ينتقل الشاعر الكبير (أحمد سويلم) بالطفل إلى مرحلة التعامل مع جيرانه، ومن الجانب الآخر تحدث سويلم عن المخترعات الحديثة، وكان من أهمها (الكمبيوتر)، ذلك الاختراع العلمي، وما يمكن أن يحويه من علم ومعرفة في كافة المجالات، ولقد حث (سويلم)على قيمة الوقت باعتبار ما له من قيمة عظيمة، وعلى الصغار أن يقسموا أوقاتهم ويستغلوها أحسن استغلال، كما تناول سويلم قيمة النظام، وحاول تعميق تلك القيمة في نفوس الصغار؛ لأنه أساس تقوم عليه الأعمال، وتتقدم به الإنسانية.

وخلاصة القول: إن شعر سويلم للأطفال يفيض بالحديث عن جوانب العلم والتعلم، فتارة يتحدث عن المدرسة، وأخرى عن الكتاب، وثالثة عن المكتبة، وغير ذلك من الموضوعات الأخرى التي تحث الطفل على القيم الطيبة، وتحصيل العلم والحرص عليه، وعدم التهاون والتفريط في تحصيله وامتلاكه.

٤. الإشارة إلى مسرحية (دنيا الحواديت)، و مسرحية (قمر الحواديت)

يقدم الكاتب المسرحي (محمد سيد عمر) في مسرحيته (دنيا الحواديت)[٦] مفهوم العطاء، فالمسرحية تعبِّر في إطارها الكليّ عن عطاء الأم وتضحياتها لصالح وليدها، ويقودنا الحديث عن القيم الفنيّة والجمالية في المسرحيّة إلى تتبع الخيال المسرحيّ عند الأديب، فالمسرحية موغلة في استخدام الخيال، فنحن نجد الأم وهي تحادث الليل والنجم والشجر والسمك، وتبيع صوتها وبصرها وجمالها وشبابها لتفتدي وليدها من الموت، كما نجد الموت نفسه، وقد تجسد في صورة رجل عجوز يحمل الموتى عبر بحيرة تكون بمثابة البرزخ بين عالمين: أحدهما للأحياء، والآخر للموتى.

وهذا الخيال الموغل هو جزء من القيمة الفنية التي تقدمها المسرحيّة، وقد لا يتاح هذا القدر من الخيال– قطعًا – في مسرح الكبار، أو عند كتابة رواية أو غيرها من الأدب القصصي، فمسرح الطفل "يعتمد على جميع المصادر الخاصة بالخيال، بوصفها عناصر تعبر عن الواقع، وهو إذا جاز لنا التعبير (الواقع الخيالي)، إنه – ببساطة – الخيال من أجل الخيال، وبالتالي هو مسرح بلا إسقاطات ما وراء اللعبة"، فلا يجب على المتلقي أو الناقد أن ينشغل بدلالة البحث عن رمز يتخفي وراء الشجرة التي تمتص دماء الأم، ولماذا تكون شجرة على وجه التحديد، أو السمكة التي تعبر بها البحيرة في مقابل (بصرها)، أو القيمة الدلالية التي يعبر عنها الليل والنجوم حين يسرقان صوت المرأة الجميل وقدرتها على الغناء، وليس من الضرورة بمكان أن تكون الشجرة رمزًا لكذا، ولا السمكة رمزًا لكذا.

إن الفانتازيا في أدب الكبار فانتازيا من أجل الواقع، لكنها في أدب الطفل بكل ما تقدمه من خيال إنما هي خيال من أجل الخيال[٧]؛ ولذا يكفينا أن نفهم في المطلق من جملة الأحداث وضع قيمتين معياريتين كبيرتين، كل منهما أمام الأخرى، إحداهما تتعلق بالتضحية المبذولة من الأم، في مقابل (الجشع والأنانية والرغبة في الانتقام) التي تتبدى في كل مظاهر الطبيعة، وأن (الأم) هي – وحدها دون سواها – التي تمثل قيمة العطاء والتضحية دون أي مقابل على الإطلاق.

وتقديم هذه الفكرة – فكرة التضحية والعطاء– بهذا الشكل غير المباشر، يمكن أن يكون قيمة نفعية تربوية للطفل من خلال دفعه إلى مزيد من الإجلال للأم، وتقدير عطائها غير المحدود (دون أو يكون ذلك من خلال وعظ مباشر وتوجيه صريح).

على أن من القيم الفنية الجمالية التي نراها في مسرحية (دنيا الحواديت) قيمتا: التشخيص، والتجسيد؛ حين نرى (الموت) وهو قيمة معنوية في صورة (إنسان) عجوز يحمل ضحاياه إلى عالم آخر بعيد، وكذا (الصحة والشباب والجمال) تبدو قناعًا ماديًا يمكن أن

ينتزعه شخص من آخر؛ ليزدان به، بينما يتحول من انتزع منه هذا القناع إلى عجوز دميم الوجه! وبالطبع هذا النوع من الخيال تقتضيه طبيعة المعالجة الدرامية للقصة المُمَسرحة، لكنه – في حد ذاته – يُعدُّ تكأة جمالية ثريّة؛ وعمل إبداعيّ يسمو بالطفل "في رقيِّه المعرفي، ويعمل على ارتقاء قدرته الفنيّة، وأخيرًا يجعله مفكِّرًا من خلال الصور".

مسرحية (قمر الحواديت) تأليف: د. مصطفي سليم، وفيها تحكي عن توهة الحواديت التي سرقت من (قمر الحواديت)، ومحاولة الأطفال لاستعادتها مرة أخري من الأسد الشرس الذي يحب الحكايات، ومن المارد الذي يكره البشر، والكاتب هنا يلعب مع الأطفال لعبة شيقة، حيث يعلمهم الدهاء اللطيف، والتحايل الجميل، والصبر والمحاولة الجريئة، وجدير بالذكر أن صاحب هذا البحث (مجدي مرعي) قد حصل بهذا العرض الذي قام بإخراجه لمسرح الطفل بالمهرجان الأول لمسرح الطفل عام ٢٠١٠ بجائزة أول إخراج، وجائزة أحسن عرض، وثماني جوائز أخرى توزعت على: التمثيل، والألحان، والديكور، والاستعراضات.

التوصيات

في ضوء ما سبق أوصي بالآتي:

- تضمين القيم الخلقية ضمن جميع المراحل التعليمية.
- تضمين محتوى مناهج وبرامج رياض الأطفال بعض الموضوعات والقصص التي تكون قادرة على إكساب القيم الخلقية لأطفال الروضة.
- تدريب المعلمات على استخدام مداخل تدريس مختلفة، ومنها القصص وكافة ألوان أدب الطفل، كأحد المداخل التي قد تساهم في تنمية القيم الخلقية.
- اعتماد الملاحظة العلمية كأحد أساليب تقويم منهج رياض الأطفال، وبخاصة عند تقويم القيم الخلقية المتضمنة في محتوى المنهج.

خاتمة

وبناء على ما تدعو إليه الجمهورية الجديدة في تأكيدها على ضرورة التحلي بالأخلاق الجميلة، وتأكيد للقيم القيمة البناءة، ومن منطلق أن نجاح أية أسرة أو منظومة أو دولة على مر العصور، مرتبط دائما بالمبادئ والأخلاق والقيم التي تنشأ عليها هذه الأسرة أو المنظومة وصولًا لبناء دولة مستقرة داخليًا وخارجيًا، فاستمرارها لأطول فترة زمنية عبر التاريخ يشترط تطبيق ونجاح منظومة الأخلاق النبيلة بين أبناءها، فكلما نجحت الدولة في بناء مواطن ملتزم بالمبادئ والأخلاق والقيم نجحت في مواجهة أية تحديات تهدد كيانها.

هوامش الدراسة:

١. علي الحديدي: في أدب الأطفال، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠م، ص٣٦٢.

٢. أحمد طوسون: الحكاية الشعبية وثقافة الطفل. مجلة (أدب الأطفال .. دراسات وبحوث) مجلة علمية محكمة، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، العدد (٧) أغسطس ٢٠١٣.

٣. نفس المصدر السابق.

٤. محمد محمود فايد: استلهام حكايات ألف ليلة وليلة في أدب الطفل، مجلة (أدب الأطفال .. دراسات وبحوث)، مجلة علمية محكمة، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، العدد (١٤) فبراير ٢٠١٧.

٥. ديوان الطفل العربي ص ١٩.

٦. دنيا الحواديت، صدرت عن اتحاد أدباء ملوي، ٢٠١٤م.

٧. ألفونسو ساستره: مسرح الطفل، ترجمة: إشراق عبد العادل، بغداد: دار المأمون،ط٢. ١٩٨٠ م ، ص ١٨.